Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.24, Issue: 2017

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد الرابع والعشرون، 2017م.

أسباب انتشار اللغة العربية وسيطرتها في الأندلس

د.عبدالمجيد البغدادي*

Abstract

The Arabic language had widely spread in all social divisions under the Islamic state in Andalus and with the passage of time got control over the all other languages and soon it became an official language of the state and established in it. Then it always remained first in the status among the languages in Andalus and says: "that we must decide that the classical Arabic had always been in the first place; it was the language of science and literature; in addition to the ceremonial language of all what were serious affairs of the state, however colloquial Arabic were followed by those of classical in the status, because it based on classical and ramifications from it and nearness to it, whereas the colloquial Latin was placed in the last by nature."

Now we want refer in this article to the reasons that helped the spread of Arabic throughout Spain and prevailing in it. There were many reasons one of them is as under:

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العلامة اقبال المفتوحة، اسلام آباد، باكستان.

It was in the forefront of these reasons that when the Christians saw the Muslim tolerance in all matters, and they saw dignity and friendship in this religion, most of them accepted Islam and it was natural to learn Muslims Language Arabic to do to perform acts of worship required by the religion, says Professor Aldaowz bin HamadAlqoze: "The role of Islam in strengthening the Arabic Language Center where he came down,,

The Arab witnessed widespread as it is the language of Quran and religious worship, and it was need for the people of Andalus to learn this language In order to do the best performance of the rituals of Islam, as Dr. Shawkyzaif says in his book: "it was naturally that, who accepted Islam from the people of Andalus to learn Arabic until he improve the rituals of Islam and recitation of his book, which is an integral part of his conversion."

This was the main reason to learn the Spanish people Arabic language.

تسمية الأندلس

إن الأرض كانت تدعى "بالأندلس" في الدولة العربية، هي عرفت بإسم "أيبريا" في أقدم العصور حين سكن فيها "الأيبريون" الذين كانوا من أقدم من أقام في هذه البلاد، وبعد ذلك سميت "بأسبانيا" أو "بأشبانية" وهذا الاسم قد أطلقه الرومان حين حكموها حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد بعد إقامة الإغريق والقرطاجنيين فيها كما يقول المقري فى كتابه:" ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم أشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس "إشبانية"[1] ثم جاء الوندال في أوائل القرن الخامس الميلادي بعد الرومان وسموها بقندليشيا، (Vandalisia) ثم نزل القوط بها وأجلوا الوندال منها وملكوها وظل ملكهم، حتى افتتح المسلمون شبه الجزيرة في أوائل القرن الثامن الميلادي، وأطلقوا إسم

"الأندلس" عليها، وبقى هذا الإسم إلى الآن بأدنى تغير في اللفظ والمعنى، أما اللفظ فقد أصبح "أندالسيا" Andalucia، وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط بعد أن كان أطلق على شبه الجزيرة جميعا.[2] لكن وُجدت تعليلات أخرى لتسمية شبه الجزيرة بإسم الأندلس وهي كما كتب المقري في كتابه نفح الطيب:" أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش –معجمة الشين– بهم سمي المكان، فعرب فيما بعد بالسين، غير معجمة بالسين، ومنها رواية:"سميت بالأندلس إبن طوبال بن يافث بن نوح لأنه نزلها."[3]

والمنطقة التى تدعى الأندلس أو أندلوسيا اليوم هى منطقة واسعة تشمل جنوب أسبانيا.[4]

جغرافية الأندلس

إنها كانت من أعظم البلاد الأوروبية ومن أجمل بقاع الأرض ذات طبيعة ساحرة جذابة إليها، وهي شبه الجزيرة التي تقع على الطرف الغربي من قارة أوروبا، طولها ألف ومائة ميل وعرضها نحو ستة مائة ميل تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب: من الغرب بحر الظلمات ومن الشرق بحر الروم ومن الجنوب بحر الزقاق، أما من الشمال تتصل حدودها إلى جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا.[5]

أما صورة الأندلس فإنها شكل مركن ذات ثلاثة أركان كالمثلث: ركنها الأول عند صنم قادس وثانيها في بلاد جليقية بمقابل الجزيرة القرطاجنة وثالثها بمدينة أربونة، ومدينة برذيل.[6]

ويقول الأمير شكيب أرسلان:"أما الأندلس في ذاتها فشكل يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث."[7]

وهذا البلاد تقسم جغرافيا إلى قسمين: الأندلس العليا والأندلس السفلى، فالعليا هي شمالى الوادي الكبير والسفلى جنوبية. كانت الأندلس أيام العرب تنحصر في إشبيلية وقرطبة وجيان وغرناطة وملحقاتها. وهي تقسم اليوم

إداريا (أو الأقاليم التى تشملها) هي المرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقادس وأونبة.[8]

البيئة الأندلسية:

كانت الأندلس بلاد واسعة الأنحاء والأطراف، ومختلفة الطبيعات والبيئات، وشتى المناخات من إقليم إلى آخر، وُجدت فيها أرض خصبة وأرض جدبة وفيها جبال وأودية وفيها أنهار وصحارى وذلك لامتدادها واتصالهامن الشمال أوروبا ومن الجنوب بحدود أفريقيا، لكن معظم البلاد محدقة بالبحور والأنهار التي تروي خصبة وتعتمد الحياة الزراعية عليها وعلى الأمطار التي تنزل في منطقة الهضبة الوسطى لذلك تصلح لجميع المزروعات التي توجد في مناطق العالم المختلفة، فالقمح والشعير والأرز والبقول والفواكه والبرتقال والزيتون والكروم توجد كثيرا هناك.[9]

أما مناخها فهو في الشتاء شديد البرود و كثير العواصف، وربما أبيضت الأرض بتوالي الثلج، وفي أيام الصيف شديد الحرارة، لكن مناخها بصفة عامة أقرب إلى الاعتدال مائلا إلى البرد، لذلك البلاد مشهورة بحسن الطبيعة واعتدال المناخ، وقد أطنب المؤرخون في وصفها كما نقل أحمد المقري عن أبي عبيد البكري وصفها فقال: "الأندلس شامية في طيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وزكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها."[10] وقال الدكتور جودت الركابي في وصف الأندلس:" منح الله تعالى الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظرا وأوفرها جمالا ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعملون الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوها المعتدل وبساتينها المشرقة وقد تحدث عن جمالها كل من حلها."[11]

وقال المقري" أعلم أن بأرض الأندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا ما لايوجد مجموعه غالبا في غيرها."[12]

وبالجملة هذه هي البيئة الأندلسية التي مالت إليها النفوس ورغبت إليها القلوب لذلك من زارها استوطنها ومن لم يزرها حن إلى زيارتها.

أسباب انتشار اللغة العربية وسيطرتها

كانت اللغة العربية قد شاعت في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس شيوعا واسعا وانتشرت في جميع الطبقات و ظهرت سيطرتها على تلك اللغات التي أخذت تنحسر شيئا فشيئا وأصبحت العربية اللغة الرسمية بها ورسخت فيها، ثم ظلت دائما في المنزلة الأولى بين اللغات كما يبين الدكتور أحمد هيكل صاحب الأدب الأندلسي موضحا مراتب اللغات بالأندلس فيقول:" على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائما في المحل الأول؛ فكانت لغة العلم والأدب العالي؛ كما كانت لغة الرسميات وكل ماهو جاد من أمور الدولة، أما العامية العربية فكانت تلى تلك الفصحى في المنزلة، وذلك لاستنادها إلى الفصحى وتفرعها عنها وقربها منها، وأما تلك العامية اللاتينية فكانت في المحل الأخير بطبيعة الحال".[13]

فالآن نستعرض الأسباب التي ساعدت انتشار اللغة العربية في جميع أنحاء أسبانيا والسيطرة عليها ومنها:

1- كان في طليعة هذه الأسباب أن المسيحيين لما رأوا التسامح الإسلامي في جميع الأمور، وشاهدوا الكرامة والصداقة في هذا الدين، دخل أكثرهم وكان طبيعيا أن يتعلموا لغة المسلمين وهي العربية ليقوموا بأداء العبادات التي يتطلبها الدين المختار منهم، فيقول الأستاذ الدعوض بن حمد القوزي: "وكان للإسلام دوره في تقوية مركز اللغة العربية حيث نزل القرآن فيها، فالقرآن عربي وبه يكون تعبدهم"[14] فالذي جعل لغة قوية تبز غيرها من اللغات هو ارتباطها بالقرآن الكريم الذي نزل بها.

فكانت العربية شهدت انتشارا واسعا على اعتبار أنها لغة القرآن والعبادة الدينية، وكان لأبناء الأندلس حاجة لتعلم هذه اللغة كي يقوموا بأداء شعائر الإسلام بأحسن قيام، كما يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه: "وطبيعي أن يقبل من أسلم من أهل الأندلس على تعلم العربية حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التي تعد جزء لا يتجزأ من اعتناقه."[15]

فكان هذا هو السبب الأساسي لتعلم الأسبانيين اللغة العربية وبه كان تعرب نصف كبير منهم تعربا كاملا.

2- أما السبب الثاني لانتشار العربية وسيطرتها، فهو كانت العربية لغة الفاتحين والغالبين (المسلمين)، وكان لأهل هذه اللغة حظ كبير من العزة والقوة الغلبة والسلطنة، فارتفع شأنها برفعة أهلها، وكان الناطقون لغيرها مغلوبين بالأندلس، فهو معروف أن المغلوب دائما يحاول أن يحاكى الغالب، كما يقول ابن خلدون في كتابه: "كان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم و ألسنتهم في جميع الأمصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم، حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها و غريبة."[16]

3- يتعلق بهذا السبب المذكور سبب سياسي أيضا وهو كل من أراد أن يتقرب من الحكام والسلاطين، أو أن ينال إحدى الوظائف الحكومية، كان يلزم عليه أن يتعلم هذه اللغة ويحسنها قراءة وكتابة، لأنها أصبحت بعد الفتح اللغة الرسمية للبلاد.

ولهذين السببين المذكورين تعلم من بقى من الأسبانيين على المسيحية، اللغة العربية بكل شوق ورغبة. ونبغوا فيها وجعلوها لغة التحدث فيما بينهم وهجروا لغاتهم القديمة.

4- ومنها كان السبب الأهم أن اللغة العربية لها تراث أدبي أوفر من غيرها، وهي أذخر منها، فأما من بقوا من الرجال المثقفين والمتعلمين على دين آبائهم الأولين شعروا سريعا أن لغاتهم مجدبة وفقيرة أمام اللغة العربية، وليس لها تراث أدبي كتراث العربية الوافر، فأقبلوا على اللغة العربية إقبالا سريعا لكونها لغة العلوم والآداب. كانوا ينهلون منها حتى شبعوا، وبرعوا فيها، وأعرضوا عن لغاتهم وآدابها، وأخذوا يستحقرونها وينغضون رؤوسهم استهزاء كما قال مصطفى صادق الرافعي بالاختصار:" تحول أهلها فيما تحول من طبيعتها، حتى كانت الغيرة يومئذ على الآداب اللاتينية أسخف مايرمي به أهل السخف".[17]

5- وكان من أهم أسباب إنتشار اللغة العربية بالأندلس نفس اللغة وميزاتها فاللغة العربية لها خصائص لا تحصى، ومنها أنها اللغة التي استوطنت جميع البلاد التي دخلت فيها وظفرت اللغات المتداولة بها جريا على عادتها لما دخلت هي في الأندلس، راقت بها فاستوطنتها واصبحت لغتها الرسسمية والغالبة المسيطرة بعد ما زايلت لغاتها الوطنية وحلت محلها.

6- وكانت ما عدا ذلك من أسباب السيطرة للعربية على الأندلس، هو دور خاص فيه لليهود الأسبانيين، أنهم لما جاءت العربية إليهم، عرفوا مكانتها المهمة، و وجدوا لذة كبرى في آدابها وأحسوا أنها لم تكن في لغتهم تلك الميزة التي امتازت العربية من غيرها، فنقلوا كتبهم من العبرية اللاتينية إلى العربية بترجمة العديد من المؤلفات العربية المهمة إلى العبرية أيضا كمقامات الحريري التي ترجمها يهود ابن سليمان عام 1205م ورسالة حي بن يقظان لابن سينا[18]. وألفوا الكتب الأدبية والفلسفية باللغة العربية و أصبحت اللغة العربية لغة جمهور اليهود بالأندلس، وانتشرت بجهودهم في البلاد كلها، كما يذكر شوقي ضيف قائلا:" فإن اليهود الذين كانوا يعيشون بإسبانيا منذ قرون طويلة تعربت- في ظننا- كثرتهم حتى لنجد كتب التراجم الأدبية الأندلسية تترجم لنفر منهم بين كتاب الأندلس وشعرائها وموسيقييها ووشاحيها."[19]

هكذا رسخت العربية فيهم حتى أصبحوا منهم شعراء وأدباء، ذكر صاحب المغرب سبعة منهم في كتابه، كذلك نجد منهم شاعرات وأديبات واشتهرت قسمونة بنت إسماعيل اليهودي التي ذكرها المقري في كتابه مع شاعرات الأندلس الشهيرة، وأخيرا يضيف شوقى ضيف في نفس الكتاب: مما يؤكد أن الكثرة من يهود الأندلس تعربت تعربا كاملا أنه حين أخذ الإسبان والغربيون يطلبون ترجمة الثقافة العربية إلى الإسبانية الدارجة واللاتينية كان لهم في ذلك دور ضخم".[20]

7- ومنها كان رجال الدين والرهبان الذين اضطروا إلى أن يترجموا صلواتهم اليومية والكتب المقدسة إلى اللغة العربية كي يتفهمها أبناء المسيحية ويتمكنوا على قراءتها، هم أنفسهم أصبحوا سببا لانتشار اللغة العربية كما يذكر مصطفى صادق الرافعي في كتابه قائلا:" لكن هذه اللغة العربية التي تشبه السحر أخذت أولئك الرهبان بآدابها حتى كانوا هم أنفسهم سبب حياتها والقائمين بالدعوة إليها إلى القرن الثاني عشر للهجرة".[21]

أولئك الرهبان استخدموا العربية انتصارا للمسلمين وجعلوا عاملا للدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين كما يكتب الدكتور محمد كرد على في كتابه:" ثم بدأ لرجال الدين من الإسبان أن يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فأخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحد الدومنكيين أول معجم عربي باللغة الإسبانية سنة 1230م"[22] لكن جهودهم أصبحت سببا لإحياء العربية في البلاد.

8- وقد ذكر الدكتور علي محمد سلامة سببا آخر في هذا الصدد يقول:" لعل من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى حب لغة الإسلام فوق أنها لغة الدين الذي اعتنقوه، أنها لغة العلوم والمعارف التي افتقرت إليها لغات الأجناس الأخرى في وقت عم الجهل سائر أرجاء المعمورة وسيطر الفساد على جميع بقاعها،

فجاءت تعاليم الإسلام ومعارفه لتحيل ظلام الجهل الحالك، والضلال الشامل والظلم السائد إلى نور و إشراق وعدل وإنصاف".[23]

الخلاصة

وكانت هناك أسباب أخرى لها أثرها في جميع جوانب الحياة الفكرية والعلمية بالأندلس عامة وفي انتشار العربية وسيطرتها خاصة، وهى عديدة:

أ- هجرة الأندلسيين من بلادهم إلى المشرق للأخذ والسماع عن علماء اللغة والأدب.

ب- ومنها كانت هجرة علماء اللغة من المشرق إلى الأندلس لمساعدة إخوانهم الأندلسيين في المجال اللغوي والعلمي.

ت- ومن هذه الأسباب الكتب المشرقية التي نقلت إلى الأندلس، لها وللحلقات من التدريس والمناظرة والتأليف والترجمة ولتعدد المراكز الثقافية (بحيث أصبحت كل مدينة مركزا من مراكز العلم والأدب)

ث- والاهتمام بإنشاء المكتبات الكبيرة والصغيرة (حتى لم يخل بيت من المكتبة) دور مهم فى إنتشار العربية وسيطرتها بين الأندلسيين.

فكانت هذه هي الأسباب المهمة التى انتشرت بها اللغة العربية في الأندلس صارعت بها اللغات الأندلسية القديمة وزايلتها وسيطرت على جميع أنحاء البلاد حتى لم ينقض زمن قليل من ثلاثين أو خمسين سنة إلا أن ألجأت الأندلسيين الحاجة إلى ترجمة قوانينهم والتوراة والكتب المقدسة إلى العربية.

والجدير بالذكر هنا أن العرب الأوائل كانوا لا يفتحون قارة لتوسيع الأراضي الإسلامية فقط بل يدخلون في قارة أو بقعة إلا لنشر دينهم ولغتهم وثقافتهم العربية الإسلامية ولنا أمثلة غير معدودة لذلك.

الهوامش والمصادر

1. المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة ،مصر 1949، ج -1، ص:131.
2. هيكل، أحمد مقصود، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ص: 13، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، 1986. ونفح الطيب ،ج-1، ص:130-141
3. نفح الطيب ،ج-1، ص:130.
4. الأدب الأندلسي، ص: 15.
5. شكيب أرسلان،الأمير،الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول ،ص: 70، المطبعة الرحمانية، مصر، 1936.
6. نفح الطيب، ج-1، ص:130.
7. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج-1، ص: 70.
8. الأمين الريحاني، المغرب الأقصى، دار المعارف، مصر، 1952، ص:439.
9. الأدب الأندلسي، ص:14.
10. نفح الطيب، ج 1، ص:125، والبكري، أبو عبيد، جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق د.عبدالرحمن علي، ص:70.
11. الدكتور جودت الركابي، الطبيعة في الشر الأندلسي، مطبعة جامعة دمشق، 1959، ص:14
12. نفح الطيب، ج 1، ص:125.
13. الأدب الأندلسي، ص:49.
14. اسم المقالة: التعريب والتغريب، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة ، العدد 102.
15. شوقي ضيف (الدكتور)، عصرالدول والإمارات –الأندلس-، دارالمعارف، القاهرة، 1994، ص: 128
16. ابن خلدون، مقدمة، الطبعة السابعة، دارالقلم، بيروت، لبنان، 1989، ص:379.
17. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1954، ص:347.

18. قصة حي بن يقضان لابن سينا طبعها الأستاذ ميكائيل بن يحي المهريني في مدينة ليدن 1988 وحققها وعلقها أحمد أمين ،دارالمعارف بمصر.
19. عصرالدول والإمارات –الأندلس–، ص: 133.
20. عصرالدول والإمارات –الأندلس–، ص:134.
21. تاريخ آداب العرب، ص: 354.
22. محمد كرد علي،غلبر الأندلس وحاضرها، المكتبة الأهلية، مصر، 1923، ص:154.
23. على محمد سلامة، الأدب العربي في الأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1989، ص: 37.

*_*_*

*_*_*